جامعة ديالى
كلية العلوم الإسلامية
قسم العقيدة والفكر الإسلامي

المادة: علم الأجتماع الديني
م.م دريد صالح نجم
٢٠٢٤- ٢٠٢٥م
المرحلة الثانية
الكورس الثاني

مفهوم علم الاجتماع الديني وموضوعاته ونشأته وتاريخ تطوره

اولاً : التعريف بمفهوم علم الاجتماع بشكل عام.

يعرف مفهوم علم الاجتماع من المنظور الكلي بأنه ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الأمور الاجتماعية للإنسان بشكل عام والطريقة التي يتفاعل به الإنسان مع غيره ومع البيئة المحيطة به، وليس هذا فقط بل يهتم بدراسة الجماعات والمجتمعات بنفس الطريقة ومعرفه الفروق الثقافية التي تختلف من مكان إلى أخر ومدي تأثر المجتمع بالثقافة الخاصة به بعاداته وتقاليده وما مدى تأثير تلك الثقافة على الآخرين وعلى العالم. ونظرا لكون علم الاجتماع من أوسع العلوم من حيث المجالات والفروع والتخصصات، فإنه يستطيع من خلاله معرفة خط سير عمل أي مجتمع من المجتمعات وما مدى تقدم وتطور وما هي العوامل والأسباب التي تؤثر علي هذا التطور سواء من ناحية إيجابية أو سلبية، والجدير بالذكر أن جميع هذه التخصصات تدرس على مستوى العالم في جامعات مختلفة.

وعلى الرغم من أن علم الاجتماع علم حديث النشأة إذا ما تم مقارنته بالعلوم الطبيعية الأخرى من الطب والهندسة والفيزياء والأحياء إلا أنه استطاع أن يثبت جدارته والدليل على ذلك وجود فروع كثيرة ومجالات وأقسام فجميع هذه الفروع والأقسام تهتم بدراسة الإنسان ليس من الشكل المادي ولكن دراسته من منظور كونه كائن اجتماعي، حيث يتم دراسة أسلوبه ومدى تأثره بالمجتمع الذي يعيش به ومدى تأثير هذا المجتمع عليه، وفي الدراسة في علم الاجتماع تعتمد على التفسير والمناهج وليس على القوانين والقواعد النظرية .

ثانياً : التعريف بمفهوم دراسة علم الاجتماع الديني .

علم الاجتماع الديني من الفروع المهمة لعلم الاجتماع العام ، لما يتناوله من مواضيع لفهم الظاهرة الدينية الموجودة في كل الثقافات الإنسانية ، من خلال دراسة المفهوم الأساسي والجوهري لعلم الاجتماع الديني ألا وهو مفهوم الدين---،

فدراسة الظاهرة الدينية ، ونشأتها وأصولها ، وتطورها ، واتجاهاتها الفكرية المختلفة ، والنظريات الفلسفية والاجتماعية والنفسية المفسرة للدين ، هي من أولويات علم الاجتماع الديني ، اضافة الى دراسة العلاقة المتبادلة بين الدين وثقافة المجتمع ، والمؤسسات والجماعات الدينية ، وأشكالها ، والتغيرات الاجتماعية والثقافية التي تحدثها الظاهرة الدينية ، والعوامل المختلفة المؤثرة والمتأثرة بالدين .

ويُعد علم الاجتماع الديني أحد فروع علم الاجتماع العام ، وقد جرت العادة على تقسيم علم الاجتماع الى ميدانين رئيسيين هما علم الاجتماع العام وعلوم الاجتماع الخاصة ، فبينما يقدم الأول دراسة للأشكال الأساسية للمجتمع وقواه الأساسية في صورة خالصة ، نجد علوم الاجتماع الخاصة تتناول الميادين السوسيولوجية المختلفة ، فهناك علم الاجتماع الفن ، وعلم الاجتماع القانوني ، علم الاجتماع السياسي ، وعلم الاجتماع الديني ، ومن هذا المنطلق يُعتبر علم الاجتماع الديني أحد أهم علوم الاجتماع الخاصة ، إلا ان علم الاجتماع الديني ينتمي من ناحية أخرى الى علم الأديان المقارن الذي يتناول إمبريقياً تأريخ الأديان بالمقارنة والتحليل ، وعليه فإننا يمكن ان نعرف علم الاجتماع الديني على انه العلم الذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية في ميدان الدين والعلاقات الاجتماعية للدين في الداخل والخارج ، فهو يتناول دراسة الكيانات والعمليات الاجتماعية التي تنتمي لميدان الظواهر الدينية ، ويهدف الى تحليل أبنيتها والقوانين التي تخضع لها .

ان الدارسين الاجتماعيين للدين لا يقومون بالبحث في الظواهر الدينية لذاتها ، وانما يتناولونها من زاوية خاصة باعتبارها نُظماً اجتماعية قائمة لها وظائفها الاجتماعية ، ولها أثرها في النظم الاجتماعية الأخرى القائمة بالمجتمع ، ومن هذه الناحية ، فعلم الاجتماع الديني وهي التسمية التي تسمت بها هذه الدراسات وثيقة الصلة بالدراسات الأنثروبولوجيا و الأثنوغرافيا التي درست الديانات البدائية الأوليةُ التي بُنيت بنُظم الجماعات البدائية والمتأخرة ، وفي مقدمتها النُظم الدينية التي تُعد حجر الزاوية للتنظيم البدائي الأولي للجماعات الإنسانية .

فعلم الاجتماع الديني هو العلم الذي يدرس المؤسسات الدينية دراسة اجتماعية مثل اماكن العبادة ، الطقوس و الشعائر ، كذلك العمليات الاجتماعية داخل المؤسسات الدينية ، كذلك يعرف بأنه العلاقة المتفاعلة بين الدين والمجتمع ، ويعرف ايضاً بأنه العلم الذي يدرس الجذور الاجتماعية للظواهر الدينية ، وأثر هذه الظواهر في المجتمع والبناء الاجتماعي ، كما عُرف بأنه العلم الذي يدرس المؤسسة الدينية دراسة اجتماعية ، والمؤسسة الدينية كما عرفها (هولت) بأنها المنظمة الرسمية ذات الطابع والصبغة الدائمة والمستمرة مثل (وزارة الأوقاف ووزارة الشؤون الدينية و المساجد) .

ومن هذا المنطلق يظهر بأن علم الاجتماع الديني يختص بدراسة الظواهر الاجتماعية التي تبرز في المؤسسات والنظم الدينية والتي حددها البروفيسور (جورج زيمل) في كتابه (علم الاجتماع الشكلي) كما يأتي :

١- الرئاسة و المرؤوسية في المؤسسات الدينية .
٢- المركزية واللامركزية في المؤسسة الدينية .
٣- الموضوعية في المؤسسات الدينية .
٤- الصراع والوفاق في المؤسسات الدينية .
٥- المنافسة والتعاون داخل المؤسسات الدينية .

وان الدراسة الاجتماعية للمؤسسة الدينية ينطوي على تحليل الأمور التالية :

أ- دراسة العلاقات الاجتماعية داخل المؤسسة الدينية .

ب- نظام السلطة في المؤسسة الدينية .

ت- نظام المنزلة في المؤسسة الدينية .

ث- تحليل العمليات الاجتماعية داخل المؤسسة الدينية .

ثانياً / نشأة علم الاجتماع الديني وتطوره :

ان علم الاجتماع الديني هو وليد العلاقة الجدلية بين الموضوعات التي يدرسها كلٌ من علم الاجتماع وعلم الدين ، فقبل ظهور علم الاجتماع الديني في النصف الأول من القرن العشرين كانت موضوعاته و أدبياته مبعثرة و مشتتة في حقلي علم الاجتماع و الدين ، وبظهوره انفصلت الموضوعات الاجتماعية الدينية كي تنمو وتتكامل وتصبح قادرة على تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً علمياً هادفاً.

وهناك عوامل أدت الى استقلالية علم الاجتماع الديني عنهما وهي كالآتي :

١- عدم قدرة علم الاجتماع على دراسة الظواهر الدينية دراسة اجتماعية متخصصة نظراً لسعة وكبر مجاله الدراسي ، وتعدد موضوعاته وكثرة العوامل والقوى المؤثرة في الحياة الاجتماعية للإنسان الى جانب عدم اهتمام علم الدين بدراسة الجذور الاجتماعية ، الدينية ، وأثر هذه الظواهر في البناء الاجتماعي .

٢- تعقد الحياة الاجتماعية وتفرعها وتداخل ظواهرها في القيم و الممارسات الدينية مع ظهور الاهتمام المتزايد للدين في شؤون المجتمع ، لاسيما بعد طغيان الحياة المادية والنفعية على الحياة الروحية والأخلاقية .

٣- ظهور الدراسات والأدبيات الكثيرة في حقل علم الاجتماع الديني (١٩٢٠-١٩٥٠) ، لاسيما نشر كتاب (علم الاجتماع الديني) و كتاب (البروتستانتية ورح الرأسمالية) لمؤلفه (ماكس فيبر) ، وكتاب الوظائف الاجتماعية للكنائس ، الى جانب ذلك ظهور عدة اقسام علمية متخصصة في حقل علم الاجتماع الديني التي تم تأسيسها في العديد من الجامعات الأوربية والأمريكية و التي ادت بدورها الى بلورة الاختصاص وتنميته وانتشاره .

اهداف علم الإجتماع الديني:

يمكن تلخيص اهداف علم الإجتماع الديني فيما يلي :

١- فهم و ادراك الأسس الإجتماعية للظواهر الدينية كالعبادة (الصوم ، الصلاة).

٢- فهم وادراك ماهية الظواهر الإجتماعية التي تبرز في النظم والمؤسسات الدينية مثل الصراع والتعاون .

٣-من أهداف علم الإجتماع الديني ايضاح العلاقة بين الدين والمجتمع .

٤-تثبيت الحدود العلمية بين علم الإجتماع الديني و التخصصات الدقيقة لعلم الإجتماع من جهة وبين العلوم الإجتماعية الأخرى .

٥- تطوير علم الإجتماع الديني بحيث يستطيع تفسير جميع الظواهر الإجتماعية والدينية .

٦- زيادة عدد العلماء والباحثين في اختصاص علم الإجتماع الديني .

٧- السعي من اجل تحرير علم الإجتماع الديني من الذاتية والإنفعالية و العاطفية التي غالباً ما تسيطر على المختصين في هذا الحقل الدراسي .

٨- اعتماد مناهج متطورة وحديثة والتي تمكن المختص في علم الإجتماع الديني من اجراء البحوث والدراسات النظرية بكفاءة ودقة أكبر.

علاقة الدين بالحياة الاجتماعية

يعتبر الدين أهم وأقوى وسيلة من وسائل الضبط في الحياة الاجتماعية، من خلال ما يقوم به من وظائف في حياة الفرد والمجتمع واستقرار النظم الاجتماعية، ولذلك اهتم علماء الاجتماع بدراسته ووضعه على قمة النظم الاجتماعية.

والدين نظام اجتماعي شامل لا يسمح لأي فرد أن يكون له رأياَ خاصاً فيه، أو يسلك سلوكاَ خارجاً عليه. فالدين يضبط سلوك الأفراد في المجتمع بالثواب والعقاب لا في الحياة الدنيا فحسب بل في الدار الآخرة أيضاً. فالتدين علاقة شخصية بين العبد وربه، وجزاءه مؤجل لما بعد الموت، فإن المجتمع لا يترك الفرد لهذا الجزاء بل يوقع جزاءاته ويزاول ضغوطه بالتبشير والوعظ والتخويف، ليصبح الدين بذلك أداة ضبط اجتماعي، لها فاعليتها في ضبط سلوك الأفراد، فحياة الجماعة والتنظيم الاجتماعي لا يمكن أن يستقرا بفعل قوة القوانين الوضعية فقط، بل لا بد من الردع الروحي والإيمان بالقيم الاجتماعية والخوف من غضب الله تعالى، وبالتالي يصبح لهذه السلطة الروحية قوة تفوق قوة القانون وأحكامه أو مظاهر السلطة المادية الأخرى

الدين والقيم الاجتماعية:

يعد الدين ــ أي دين سماوي أو أرضي ــ من أساسيات الراحة النفسية، ومن دعائم التنشئة الاجتماعية السوية، كما يعد ضرورة هامة لبناء المجتمع. ولا تقل ضرورة الدين للمجتمع وأفراده عن ضرورة الهواء والماء والغذاء للفرد. فإذا كان الغذاء يغذي الجسد ليساعد الفرد للبقاء على قيد الحياة، فإن الدين هو غذاء الروح الذي ينقيها من الأنانية والرذيلة وسوء الخلق. فإذا مر الفرد والمجتمع في حالة من ضعف الوازع الديني فإنه يكون معرضا للمشكلات النفسية والاجتماعية، ويكون أكثر ميلا للتفكك والانهيار الاجتماعي.

وإذا خصصنا الحديث عن الإسلام فإننا نجد أنه يختلف عن الديات الأخرى. فالقيم قد تتفق في المسمى بين الإسلام والديانات والحضارات الأخرى، إلا أن القيم الإسلامية تختلف عنها في الجوهر والمضمون. لأن الإسلام تكفل الله تعالى بحفظه وحمايته من التحريف، والتزوير، والتغيير، والضياع. قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[1]. لذلك لم يعتر مصادر التشريع الإسلامي الرئيسية (القرآن، والسنّة) أي تغيير، مثل الذي تعرضت له اليهودية والنصرانية. كما يختلف الإسلام عن الديانات الوضعية. ووجه الاختلاف بين القيم الإسلامية وقيم الديانات والحضارات الأخرى، هي أن قيم الإسلام مطلقة وثابتة. فالذين يعتريهم التغيير هم الأفراد ونظم المجتمع،

---

[1] الحجر، ٩.

لا القيم. وعندما يتم الحديث عن تغير في المجتمع الإسلامي، يقاس بمدى اقتراب أو ابتعاد الأفراد عن القيم. بمعنى آخر، الذي يتغير الأفراد لا قيمهم. أما الديانات المحرفة والوضعية فإن قيمها تعرضت للتبدل والتغير بتبدل وتغير الأفراد. وتحاول القيم أن تكيف نفسها مع التغيرات الاجتماعية في المجتمعات.

المحاضرة الثانية:

تدوين وتطور الفكر الديني :

عالج بارسونز وبيلا تطور الدين ، ونظراً الى ان الدين في تطوره يزداد تبايناً وتفرداً عن بقية المجتمع ، يذهب بارسونز الى ان ازدياد التيار الفكري العلماني المصاحب لتطور الدين لا يعني انحساراً أو اختفاء للدين ، ولكن يعني ان الدين في تطوره يزداد خصوصية ، ويؤكد بارسونز على ان الدين ما زال شيئاً هاماً بالنسبة للأفراد ، وان التدين الفردي سوف يستمر في التأثير على السلوك العام ، وقد وضع بيلا خمس مراحل تطورية للدين :

الأولى - مرحلة الدين البدائي:

وهي أبسط أشكال الدين بدائية ، وتظهر عند القبائل البدائية لسكان استراليا الأصليين، فنسق الرموز الدينية عند هذه الجماعات يركز على عالم خرافي هو عالم الأرواح ، وهذا العالم يمدهم بنموذج لفهم العالم الحقيقي ، ومن خلال الطقوس الدينية يتوحد الأفراد مع الكائنات الروحية الموجودة في العالم الخرافي اي في عالم الأرواح ، وفي مرحلة الدين البدائي لا يوجد انفصال بين الأدوار الدينية والبناء أو المنظمات ، فالدين ليس جزءاً مختلفاً عن الثقافة ، ولذلك فهو يخدم وحدة الثقافة ويعظم من الإستقرار في البناء الإجتماعي ، فالدين لا يعمل على وجود التغير الإجتماعي .

وتمثل هذه المرحلة الطور الأول ، حيث كانت الإنسانية تدين بالفيتيشية ، والتي تعني نزعة فكرية تحمل المرء على القول بأن الأشياء المحيطة بها لها حياة كحياته ، فيخشاها ويكرمها ، وكان هذا الفكر الديني في بادئ الأمر يمتد الى جميع نواحي الحياة وشتى مظاهرها .

الثانية ـ مرحلة الدين القديم :

وفي هذه المرحلة يزداد قوة وتأثير هذه الكائنات الروحية عن المرحلة السابقة ، وينظر اليهم أكثر من كونهم نماذج ، فهم مزودون بقوة وسلطة ولهم قدرة على التأثير في الحياة اليومية ، ولذلك فهنالك صلوات تقام لتحقيق الإتصال مع هذه الكائنات الفوق انسانية ، وفي هذه المرحلة هناك علاقة قوية بين الدين والسياسة ، وتبدو هذه العلاقة في تقديس الملك الحاكم ، كما ان الأسر ذات المكانة السياسية العالية عادة هي التي تحتل المكانات الدينية العالية والأدوار الدينية الرئيسية ، فالدين في هذه المرحلة أساسي وضروري ، ونسق الرموز الدينية ليس مستقلاً عن نسق الرموز العلمانية ، لذلك فإن الرؤيا الدينية للعالم لم تقدم بديلاً لما هو سائد في الثقافة .

الثالثة ـ مرحلة الدين التأريخي:

ان السمة المميزة لمرحلة الدين التأريخي ذلك الفصل بين العالم المقدس والعالم العلماني ، هذه الثنائية عادة تقود الى رفض الواقع وقيمه مع استحسان العالم الديني ، ان هذه للمرحلة تعني تطوراً في الدين لأن الدين أصبح شيئاً أكثر من كونه ولاء للقبيلة ، ان الدين التأريخي يدعم وجود الإله الأوحد أو وحدانية الإله ، اي ان هناك إلهاً واحداً لكل الناس ولكل القبائل ، والأبعد من ذلك ، ان مفهوم الفصل والإستقلال لعالم الموجودات يتضمن التمفصل بين النماذج البديلة ، عن ماذا تكون حقيقة العالم ؟ وماذا يتوقع من الإنسان ؟ وفي هذه المرحلة ظهر أيضاً الكيان المستقل للمؤسسات الدينية وأنساق الرموز .

ان كل ديانة في رقيها تحاول الإنتقال من تعدد الآلهة الى القول بإله واحد يدير شؤون الكون وهي في هذه المحاولة ، تصل بين شتى الجماعات التي كانت تدين بآلهة مختلفة ، وقد تخلق منها وحدة سياسية قوية ، والديانة المصرية مثل لنا على ذلك ، يقول مسبيرو " عرفت مصر التوحيد ، في ابتداء عهدها ، لأسباب سياسية وجغرافية أكثر منها دينية ، فغدا سكان هيليوبوليس يعبدون الإله (رع) مع عبادتهم غيره من الآلهة ، غير انه كان يُعتقد ان (رع) يفوقهم قوة وانه متفرد بسلطانه " ، وكذلك الإسلام دعا القبائل العربية الى التوحيد بعد ان كانت تدين بديانات مختلفة ، فكان من جراء هذه الوحدة الدينية وحدة سياسية قوية ضمت شمل العرب وجعلتهم دولة واحدة استطاعت ان تسيطر على قسم كبير من اجزاء المعمورة .

الرابعة ـ مرحلة الدين المعاصر المبكر:

في هذه المرحلة تظهر ايضاً ثنائية رؤية العالم واستقلال المؤسسات الدينية ، كما تعدلت النظرة السلبية للعالم الواقعي ، بينما ظل الخلاص يُنظر اليه على انه مكافأة ينالها الفرد في العالم الآخر ، فخلاص الفرد يتحقق من خلال علاقة الفرد الشخصية مع الإله ، وقد حدد بيلا بداية مرحلة الدين المعاصر المبكر بالإصلاح البروتستانتي ، فالإصلاح البروتستانتي يركز على الدور الوسيط للمنظمات الدينية ، فالخلاص هو مسؤولية فردية في هذا العالم ، ان الولاء للإله يُنظر اليه من خلال مفاهيم السلوك في الحياة اليومية أكثر من مجرد حضور الطقوس الدينية ، هذا يعني ان المؤسسات العلمانية الخاصة بالقانون والتعليم والسياسية ، أصبحت قطاعات يعبر فيها عن القيم والإتجاهات التي يمكن للفرد ان يستقي منها رؤية العالم ، ففي هذه المرحلة أصبح الدين أكثر خصوصية ، فهو ليس محتماً ولا مضبوطاً بواسطة الجوانب الرسمية العامة .

الخامسة ـ مرحلة الدين المعاصر:

يرى بيلا ان الدين المعاصر هو ظاهرة جارية في ظهورها ، وان طبيعة هذه المرحلة ووجودها محاط بالمخاطر ، ويذكر بيلا ايضاً بأننا نحن الآن نمر بمرحلة تحول في الدين الذي يتضمن مزيداً من الخصوصية وقليلاً من الضبط التنظيمي ، ويذهب بيلا الى ان هناك أشكالاً جديدة من الدين تظهر ، وأن هذه الأشكال الجديدة تتميز بإلغاء الرؤية المزدوجة للعالم اي تلك التي تحوي عالمين عالم مقدس وعالم علماني ، فالدين في هذه المرحلة أصبح أقل ازدواجية ، ولذلك ينظر بيلا الى رؤية العالم على انها تدين علماني ، فالتطور الديني بالنسبة لبيلا هو زيادة في تعقد نسق الرموز وتعقد انظمة المجتمع ، ان المرحلة الأخيرة من عملية التطور تسمح للأفراد بأن يقوموا بإختيار رؤية العالم ، فالأفراد أصبحوا أكثر استقلالاً ليفكروا في انفسهم ويخلقوا نسقاً خاصاً بهم .

تعريف الدين:

ترمز كلمة (الدين) في اللغة إلى وجود علاقة بين طرفين أحدهما معظم ومقدس، والآخر خاضع ومنقاد له. وتحمل في القرآن ستة معاني، وهي[١]:

- الملك والسلطان: قال تعالى: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}[٢].
- الطريقة: قال تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[٣].
- الحكم: قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه}[٤].
- القانون الذي ارتضاه الله لعباده: قال تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً}[٥].
- الذل والخضوع.
- الجزاء: قال تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[٦].

أما في العلوم الاجتماعية يعتبر (الدين) من المفاهيم التي يكتنفها الغموض، فلا يوجد تعريف واحد وواضح. وهذا بسبب تعدد العلوم وتنوع الاتجاهات الفكرية التي درست الدين. ومن بين الجهود التي عرفت الدين:

❖ جواد علي: "إيمان وعمل". إيمان بوجود قوى خارقة فوق طبيعة البشر العقلية، ولهذه القوى تأثير في مجرى حياة الإنسان. وعمل في أداء

---

[١] مركز الفتوى، فتوى رقم ١٢٤٥٤، الثلاثاء ٢٠٠٢/١/٨م، إسلام ويب، http://www.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=Fatwald&Id=12545

[٢] يوسف، ٧٦.

[٣] الكافرون، ٦.

[٤] الأنفال، ٣٩.

[٥] الشورى، ١٣.

[٦] الفاتحة، ٤.

تعريف الدين:

ترمز كلمة (الدين) في اللغة إلى وجود علاقة بين طرفين أحدهما معظم ومقدس، والآخر خاضع ومنقاد له. وتحمل في القرآن ستة معاني، وهي[١]:

- الملك والسلطان: قال تعالى: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}[٢].
- الطريقة: قال تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[٣].
- الحكم: قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه}[٤].
- القانون الذي ارتضاه الله لعباده: قال تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً}[٥].
- الذل والخضوع.
- الجزاء: قال تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[٦].

أما في العلوم الاجتماعية يعتبر (الدين) من المفاهيم التي يكتنفها الغموض، فلا يوجد تعريف واحد وواضح. وهذا بسبب تعدد العلوم وتنوع الاتجاهات الفكرية التي درست الدين. ومن بين الجهود التي عرفت الدين:

❖ جواد علي: "إيمان وعمل". إيمان بوجود قوى خارقة فوق طبيعة البشر العقلية، ولهذه القوى تأثير في مجرى حياة الإنسان. وعمل في أداء

---

[١] مركز الفتوى، فتوى رقم ١٢٤٥٤، الثلاثاء ٢٠٠٢/١/٨م، إسلام ويب، http://www.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=12545

[٢] يوسف، ٧٦.

[٣] الكافرون، ٦.

[٤] الأنفال، ٣٩.

[٥] الشورى، ١٣.

[٦] الفاتحة، ٤.

فرائض وشعائر وطقوس معينة، تفرضها الأديان السماوية والأرضية، لاسترضاء الآلهة[١].

- ❖ محمد دراز: "وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات"[٢].
- ❖ سيسرون: "الرباط الذي يصل الإنسان بالله"[٣].
- ❖ كانط: "الشعور بواجباتنا من حيث قائمة على أوامر إلهية"[٤].
- ❖ تايلور: "الإيمان بكائنات روحية"[٥].
- ❖ دور كايم: "مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة، وتضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة"[٦].

خصائص الدين:

في هذا المقام سنورد بعضا من الخصائص العامة والمشتركة لكل الأديان السماوية والأرضية ـــ:

١. الإيمان بوجود إله خالق لهذا الكون.
٢. التمييز بين العالم الغيبي وعالم الماديات.
٣. الإله له صفة القداسة ولا يمكن إدراكها بالعقل.
٤. وجود عبادات معينة، وطقوس محددة لكل عبادة يجب التقيد بها.
٥. الدين لا يقتصر على العبادات فقط، بل يشتمل على الجانب الأخلاقي الذي يضبط سلوك الأفراد، كما يشتمل على المبادئ التى تنظم حياة الناس.

المحاضرة الرابعة:

تاريخ علم الاجتماع الديني وتطوره .

عتبر علم الاجتماع من العلوم الحديثة نسبياً، ويُعزى تأسيسه كعلم مستقل بذاته إلى أكثر من شخص، فمنهم من ينسبه لابن خلدون المؤرخ المسلم والذي أطلق عليه علم العمران، وهناك من ينسبه لأوجست كونت الذي حدد له القوانين والمسارات وقدمه بتعريف محدد.

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي سياق تميز بتحولات اقتصادية سياسية واجتماعية عميقة، كان لمفكرين أمثال: أوجست كونت، أليكسيس دو توكفيل، كارل ماركس، إميل دوركايم، وماكس فيبر، انشغلوا بطبيعة المجتمع الناشئ وليكونوا بهذا قد وضعوا أسس تساؤل سوسيولوجي يتجاوز مرحلة التفكير الاجتماعي الأخلاقي التي سادت الفكر الفلسفي الإغريقي الإسلامي والآسيوي، إلى تفكير أكثر علمية وموضوعية في أسباب ونتائج الظواهر الاجتماعية .

ومن أجل دراسة هذه الظاهرة الإجتماعية المركبة؛ لا بد من وجود أدوات منهجية معرفية تحتوي على قوالب ومعادلات، تعمل على توصيف الظاهرة وتحليلها واكتشاف معالمها. وهذه الأدوات المعرفية تتمثل في علم الاجتماع الديني بالدرجة الأساس، إضافة الى الاجتماع السياسي والاجتماع الثقافي واجتماع المعرفة وانثروبولوجيا الدين وفلسفة الدين كمداخل علمية مكملة. ومن مجموع هذه المداخل يتشكل منهج علمي جديد خاص بدراسة الاجتماع الديني؛ بوصفه وحدة سسيولوجية مذهبية بالدرجة الأساس.

وعلم الإجتماع الديني أداة معرفية لاكتشاف معالم الظاهرة الإجتماعية الدينية، وتوصيفها وتحليلها، وترسيم هيكيلتها وأنساقها المعرفية والعملية، وعلاقاتها الداخلية والخارجية، ومقارنتها بالظواهر الأخرى المشابهة أو المتعارضة. و ليست مهمة علم الإجتماع الديني اختراع ظواهر الإجتماع الديني أو اختلاقها، و لا الاستدلال على صحتها وخطئها؛ لأنه ليس علماً تجريبياً و معيارياً، ولاعلاقة له بالسجال الديني والمذهبي؛ بل هو أداة لدراسة ظاهرة قائمة.

و كغيره من العلوم الانسانية والاجتماعية المعنية بدراسة الدين؛ فإن علم الاجتماع الديني هو منهج معرفي نشأ في الغرب كرد فعل على احتكار الكنيسة للدراسات المعنية بالأديان وتطورها التاريخي وفلسفتها وعقائدها. فقد كانت العلوم الاجتماعية والإنسانية الكنسية هي جزء من الدراسات اللاهوتية المسيحية. ولكن بالتزامن مع ماعرف بعصر النهضة الأوربية وصراع العلمانية والكنيسة؛ برزت المنهجيات العلمانية السسيولوجية والانثروبولوجية والاثنولوجية الدينية لتقدم تفسيرات علمانية لنشوء الأديان وتطورها، ولتعريف المقدس والمدنس. أي أن علم الاجتماع الديني التقليدي يمثل الفهم السسيولوجي العلماني للدين، وهو الفهم الذي ظهر رداً على الفهم الكنسي للدين أو الفهم الديني للدين. وإذا كانت العلوم الدينية تدرس الدين من داخله، من خلال علم العقيدة وعلم الفقه وعلوم النص المقدس وتاريخ الأنبياء والأديان؛ كونها علوم تستند الى نصوص دينية وقواعد دينية أو مستنبطة من الفهم الديني؛ فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية واللسانية الوضعية، ومنها علم الاجتماع الديني، تدرس الدين من خارجه، وبعيداً عن حضور المقدس والتقاليد الدينية.

المحاضرة الخامسة:

نظريات حول نشأة الأديان

من المعروف لدينا في إن علم نشأة الدين أو ما يعرف بعلم الإجتماع الديني هو علم حديث نسبياً فهو لم يبدأ إلا في القرن التاسع عشر ، وكان أوائل العلماء الذين بحثوا في نشأة الدين السير جيمس فريزر و إدوارد تايلر و إميل دوركهايم و مالينوفسكي و بروان و ماركس و فيبر وغيرهم من علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا .

ان تأخر دراسة الظاهرة الدينية يرجع الى ارتباط الدين بالجانب العقائدي من حياة الناس مما يجعله محاطاً بسياج من الرهبة والقدسية التي تدعو الى الحذر والتردد في معالجة قضاياه ومواضيعه الحساسة .

ومع ظهور المجتمعات البشرية ، وازدياد اعتمادها على الطبيعة ومحاولة التحكم بها خاصة عند المجتمعات الزراعية البدائية ، وبإزدياد تأثير الظواهر الطبيعية على تركيبة هذه المجتمعات وطرق انتاجها لحاجاتها البشرية ، بقيت المجتمعات البشرية غير قادرة على التحكم بأساليب حياتهم ومعيشتهم ، فبدأ الإنسان ضعيفاً عاجزاً أمام قوى الطبيعة العاتية ، فظهر الدين أو ما يعرف بالفكر الديني ، حيث أخذ البشر بالإعتقاد بوجود كائنات أو قوى غيبية تعيش في أماكن بعيدة تتحكم بمصير المجتمعات البشرية ، فكان لابد من استرضاء هذه القوى او الكائنات وتقديم الطاعة والولاء والقرابين لتحميهم وتمنع الأخطار عنهم ، وبهذا ظهر ما يعرف بالدين أو الفكر الديني .

وترجع أسباب دراسة الأديان الى دخول أوروبا عصر التنوير في القرن الثامن عشر ، وعمّت العقلانية جميع أوساط ، فشن العلماء الطبيعيون حرباً ضد الكنيسة وأدرك العلماء في ذلك العصر ان المنهج الذي يطبقه العلماء الطبيعيون يمكن تطبيقه على العلوم الإنسانية ، وقد ساعد على ذلك ان العلوم الطبيعية قد بدأت تتقدم بسرعة مذهلة ، واجتاحت الثورة الصناعية أوروبا ، ونشأت الحركات الإستعمارية لتغذية الصناعة بالمواد الخام ، ومع الإستعمار انتقل الكثير من الأوروبيين للعيش في أفريقيا وأسيا وتعايشوا مع الناس غير مسيحيين ، بل ودرسوا تأريخ إيران والشرق الأقصى بدياناته المتعددة ، والحضارة المصرية القديمة--- ،

وقد قاموا بمقارنة ما وصلوا اليه من بما جاء بالتوراة ، فوجدوا اختلافاً كثيراً أدى الى ظهور النقد اللاذع للتوراة ، بل والكتاب المقدس ككل ، فتدخلت الكنيسة لتوقف هذا النقد اللاذع ، ولتخرج من الحرج الذي وقعت فيه ؛ فقام كثير من أتباعها من العلماء بتبني نظرية دارون في التطور وطبقوها على الأديان بمقولة ان المظاهر الدينية التي يتمتع بها الهمج أو المسلمون أو غيرهم تعتبر بداية سابقة للتطور الديني المسيحي الأوربي ، غير ان هؤلاء المفكرين من أتباع الكنيسة أغفلوا أو تغافلوا عن حقيقة مهمة ، وهي ان نظرية التطور بالرغم مما وجه اليها من النقد كان مجالها علم البيولوجيا وليس مجال الدين هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن القول بان الدين ظاهرة تخضع للتطور وان الأديان الأخرى غير المسيحية حلقة في سلم التطور امر يناقض العقل فلماذا تطور الأوربيون الى المسيحية ولم يتطور غيرهم بالرغم من التعاصر الزمني بين الفريقين ، وكانت البدايات الأولى مع تحديد ماهية الدين وكنيته ، ورغم اختلاف التحديدات في ذلك وتعارضها احياناً إلا أن الأبحاث والكتابات فيها كانت كافية لظهور ما يعرف بإسم علم الدين ، وفيه وضعت أسساً كافية لدراسة الدين علمياً وكيفية النظر له كظاهرة سوسيولوجية وكيفية اقامة علم الإجتماع الديني . فعلم الدين هو العلم الذي يهدف للدراسة الموضوعية للدين.

١-النظرية الإرواحية :

وهي النظرية التي قدمها تايلر وتفترض ان أصل الأديان ينبع من تجربة الأحلام والتخيلات التي أرشدت الإنسان البدائي الى اكتشاف مفهوم الروح الذي اتسع نتيجة استطراد فكر هذا الإنسان متجاوزاً أرواح الكائنات الحية الإنسانية والحيوانية والنباتية الى الأشياء غير المادية والقوى الغيبية غير المرئية والمجردة .

حيث قدم تايلور تفسيراً نفسياً و إجتماعياً في آن واحد وهو حاجة الإنسان القديم لفهم طبيعة الأحلام والنوم الموت ، وقد دفعته هذه الحاجة الى التوصل الى مفهوم (الروح) ، ثم قاده هذا الإكتشاف الى ان الأرواح تغادر الأجساد بشكل مؤقت ، كما هو الحال في النوم ، أو تغادر بشكل نهائي كما في (الموت) ، وحين يموت الإنسان تغادر جسده إلا انها تبقى تحوم في المكان نفسه ، وتكون مصدر قلق للأحياء مما دفعهم ذلك الى التقرب منها وتقديم الأضاحي خوفاً من الأذى الذي تلحقه بهم ، وهكذا بدأت عبادة الأجداد .

٢-النظرية الحياتية :

وترجع الى الأستاذ ماريت الذي يعتقد بأن هناك مرحلة سبقت ظهور مفهوم الروح وهي مرحلة مفهوم الحياة ، فالإنسان الأقدم بإعتقاده ظل لا يفهم القوى المجهولة والخفية التي تزخر بها الطبيعة ، وصار يتخيل هذه القوى غير الشخصية ، فعزى لها طاقة أو قوة حيوية مؤثرة هي صنف من المانا اي قوة طبيعية دينامية مجردة كالتي يعتقد بها سكان جزر اوقيانوس في المحيط الهادي .

حيث تميز ماريت بفكر غني متشبع بفهم الموضوع كما يتضح ذلك في كتاباه (عتبة الدين) ١٩٠٩ و (علم النفس والفولكلور) ١٩١٠ ، فالحركية التي يقترحها ترتكز على مصدر السببية وعنصرها الفاعل الذي يختلف عن الحركية في نواميس الطبيعة ، فنراه في هذا الإطار من المعنى يسبب الدور الأهم في سببية الفكرة الدينية ، لا الى الأرواح المشخصة بالصورة الملائمة ، ولكن الى قوى غير مشخصة ، فمثلاً الإعصار لا تسكنه الروح ولكنه حي بنفسه ، ثم تقوده هذه الفكرة الى تقرير المبدأ التالي : الأرواح والإلهة خلائق الإنسان احدثتها ضرورة تأسيس نظام اجتماعي على عناصر يفترض فيها ان تتجاوز طاقة الإنسان .

٣- نظرية عبادة الأشباح :

وهي فكرة الأستاذ هربرت سبنسر عن أصل الأديان ، وهو يرى ان هذا النوع هو الأقدم ، وقد انبثق كما اعتقد من الأهمية التي كانت تضفيها الجماعات القديمة على أسماء ملوكها وأبطالها وأجدادها .

ويرى سبنسر ان عبادة الأسلاف أقدم من عبادة الأشياء الطبيعية ان الإنسان البدائي كان يرى في أحلامه صورة أبيه الذي مات ، وهو كذلك يستطيع ان يتصوره في اليقظة ، وان روح أبيه يمكن ان تنفعه اذا رضيت عنه ، أو ان تسخط عليه اذا لم ترض ، ولذلك فقد حاول الإنسان البدائي جاهداً ان يسترضي هذه الأرواح ، أي أرواح الأسلاف ، ومن هنا نشأت القرابين .

٤- نظرية السحر :

وقد صاغها الأستاذ جيمس فريزر الإنكليزي ، وهي تُرجع ظهور الأديان البدائية الأولى الى فشل السحر في تحقيق ما كان يصبوا اليه الإنسان من سيطرة على ظواهر الطبيعة مما دفعه الى الإعتقاد في وجود قوى فوق طبيعية خارقة لا تخضع لإمكانيات السحر ، مما اضطره الى ان يُذعن لها ويتقيها .

فنشأة الدين من وجهة نظر فريزر بأن الإنسان لجأ الى الدين لا خوفاً من الطبيعة بل رغبة منه في أن يسيطر عليها ، وان السحر سبق الدين في ظهوره ، وان الدين سبق العلم .

٥- نظرية عجز اللغة :

ان واضع هذه النظرية هو الأستاذ ماكس مولر ، وهي تشير ان أصل الفكر الديني يعود الى علة اساسية في اللغة تنطوي على اضفاء صفات العقل والقصد والإرادة على الظواهر الطبيعية كالعواصف والبراكين والزلازل مما دفع الإنسان تدريجياً الى الإعتقاد بأن هذه الظواهر وأمثالها تتسم بالعقل .

فهي تمثل عبادة بسيطة للظواهر الخارقة للطبيعة يُعتقد انها تتمتع بقدرات كونية ، والتي تظهر أحياناً مجسدة ، كذلك يمكن اعتبارها موقفاً كونياً لفهم العالم ، بإعتباره مجموعة من الرسائل التي تحتاج الى تفسير.

٦- نظرية الضعف الإنساني :

ويرى واضع هذه النظرية الأستاذ بروس بأن الإنسان الأقدم ظل فترة طويلة يعاني من عجزه عن كبح جماع الطبيعة ، وقد دفعه تخلفه التكنولوجي الى الإعتقاد بسطوة الطبيعة ، وحتمية خضوعه لها والحاجة الى جعل صلاته بها مبنية على العبادة والخشية .

٧- نظرية عبادة الأجرام السماوية :

تفترض هذه النظرية ان أقدم الأديان انطوت على عبادة الأجرام السماوية خصوصاً الشمس أو القمر نتيجة التصور البشري بوجود سمات عقلية في هذه الظواهر ، ويطلق على هذا النمط من الاديان (بالوثنية النفسية) .

٨- نظرية الغريزة الدينية :

ان نشأة الأديان كما تقترح هذه النظرية كانت حصيلة غريزية دينية فطرية دفعت الإنسان الى الحس بالحاجة للأديان لمواجهة مخاوفه من القوى الغامضة التي تغلف وجوده في الطبيعة .

٩- نظرية الطوطم :

وهي للعالم الفرنسي دوركهايم وتُرجع اصل الأديان البدائية الى حاجة الإنسان للتضامن الإجتماعي ، وقد توصل الإنسان حسب رأي هذا العالم الى فكرة الطوطم بوصفه اقدم الرموز الدينية التي جاءت لتجسيد مفهوم الوحدة الإجتماعية لدى الجماعات ؛ وعلى حد تعبير دوركهايم في كتابه (الصور الأولية للحياة الدينية) ، فإن الدين مسألة اجتماعية وليس مسألة فردية ، وإن الحيوانات الطوطمية كانت تُقدس في أستراليا على اعتبار أنها ترمز الى وحدة الجماعة أو العشيرة ، وتقديسهم للطوطم كانوا يقدسون العشيرة ذاتها أي المجتمع نفسه ، وفي احترامهم للطوطم كانوا يعبرون في الواقع عن علاقة أفراد المجتمع بالمجتمع ذاته ، على ان المجتمع هو مصدر التقاليد الخلقية مثلما هو مصدر لوجودهم نفسه ، كما ان الهة القبيلة تمثل لنا نظام المجتمع القبلي ذاته .

١٠- نظرية الإله الأعلى :

وقد اقترحها المفكر الألماني وليم شمت ، وفحواها ان الديانات الأولى كانت تعتمد على نظام عبادة الاله الواحد ، غير انها تدهورت وتشوهت في ظنه مع مرور الزمن وصارت ترتكز على مبدأ تعدد الآلهة .

١١- نظرية تمجيد الملوك :

ويعتقد أصحابها الإنتشاريون الإنجليز بأن الدين جاء نتيجة للإعتزاز بذكرى الملوك بعد موتهم ، وقد استحال الإعتزاز الى الرغبة بالتخليد ثم تطورت الفكرة وتحولت الى تخليد هذه الذكرى ، وعندها أصبح الملك موضع احترام مقدس .

١٢- نظرية التجربة الطفولية :

صاحب هذه النظرية هو الأستاذ سيغموند فرويد الذي يعتقد ان الدين قد تمخض عن تجربة الطفولة الأولى التي تعرضت لها البشرية الأولى في القدم ، وتدور هذه التجربة حول تآمر الصبية في أول زمرة انسانية على زعيم الزمرة - ابيهم – وقتله

وكان لهذا الجرم أثر عميق في نفوسهم ادي قيما بعد الى شعورهم بالندم وتأنيب الضمير، ونتج عن هذا ان تعاضمت شخصية الأب القتيل في ضمائر الأبناء ، مما حدى بهم الى تخليد ذكراه عن طريق عبادته ، وقد مثلوا له بالطوطم الذي أصبح رمزاً يشير الى مكانته في أذهانهم وتدور حوله طقوسهم الروحية .

واستنتج فرويد في كتابه (طوطم و تابو) ان قتل الأب حرّمة تناول الطوطم ، وربط حرمة جماع الأم بقاعدة طوطمية ، خاصة بالزواج من خارج العشيرة ، لكن ما الدليل على هذا القتل المزعوم أصلاً للأب ؟ ، بالإضافة الى ان الزواج من الأقارب لا يتعلق فقط بالعلاقة الجنسية مع الأم ، ومن محض الخيال ، بين تناول الأغذية وإقامة علاقة جنسية ، خاصة ان الطوطميات لا تحرم دائماً الأغذية ، ورغم ذلك ، فمن الصحيح ان الفكر الطوطمي يتضمن مواقف طقوسية تتعلق بالإحترام والتقوى ، وأيضاً بطاعة التعليمات والمحرمات مثل كل الأديان ، ولا يدل ذلك على قدم الطوطمية مقارنة بالأديان المنظمة أو أديان الخلاص (المسيحية) .

١٣- نظرية القربان :

وتقدم بها روبرتسن سمث وهي تنص على ان الدين الأول قد نتج عن مفهوم القرابين ، فقد ابتكر الإنسان هذا المفهوم ليكون همزة الوصل بينه وبين القوى الفوق طبيعية ، وبينه وبين افراد جماعته التي تأكل من لحم القربان .

مناهج البحث في علم الاجتماع الديني[1]

المنهج التاريخي الظني:

تميزت الدراسات الدينية المبكرة باعتمادها على المنهج التاريخي الظني ــ والذي يسمى أحيانا بالتاريخي التخميني، أو التاريخي الافتراضي ــ، على اعتبار أن هذا المنهج يهدف إلى تتبع المراحل التاريخية التي مرت بها الظاهرة الدينية، منذ نشأتها في المجتمعات البدائية البسيطة حتى وقتنا الحالي، وكيفية اختلافها عبر العصور والمجتمعات. بهدف التوصل إلى قانون عام يفسر تطور الظاهرة الدينية. ويعد "دوجالد ستيوارت" من رواد المنهج التاريخي الظني.

يستند المنهج التاريخي الظني على فرضية رئيسية: "المجتمعات الإنسانية مرت في نفس المراحل التاريخية بصرف النظر عن الزمان والمكان". مما يعني أن المجتمعات تشابهت في الديانات الأولى، على اعتبار أن "التوتمية" هي أول ديانة عرفتها الإنسانية، ولم تسبقها أية ديانة. ثم تطورت التوتمية إلى عبادة الأرواح، أو عبادة الظواهر الطبيعية. وترتب على هذه الفرضية فرضية فرعية هي: "أن الجماعات المتأخرة المعاصرة سواء في استراليا، أو أفريقيا، أو أمريكا، أو أي بقعة جغرافية أخرى، لا زالت تعيش نمط الحياة الدينية الأولى (التوتمية)، طالما لم تصلها الحضارة والديانات الراقية".

بعد ذلك انصبت جهود العلماء في ترتيب الجماعات الإنسانية حسب درجة كمالها، وتدرج معتقداتها الدينية وطقوسها التعبدية من البسيط إلى المعقد.

---

[1] استعنت في عرض هذا الموضوع بـ: أحمد الخشاب، الاجتماع الديني مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، د.ت، ص ٥٠- ٦٦.

إن الدراسات التاريخية الظنية لم تكن تعتمد على التحليل العلمي، إنما كانت تعتمد على الظن بالدرجة الأولى لما كانت عليه الحياة الدينية في المجتمعات البدائية.

المحاولات الأولى لتطبيق المنهج التاريخي الظني قامت على تفسير نصوص الكتب المقدسة ــ لاسيما العهد القديم (التوراة) ــ، ومقارنة ما ورد فيها بما عرفوه وسجلوه عن المجتمعات المتأخرة. وهذه المحاولات كانت تعتمد على "الاستدلال" أكثر من اعتمادها على الملاحظة والتجربة. وكان معظم علماء الاتجاه التاريخي قد اعتمدوا في دراساتهم على "التحليل القياسي". وقد بدا ذلك واضحا في كتابات "جيمس فريزر" و"إدوارد تايلور". والتحليل القياسي لم يكن يعتمد على المقارنة العلمية الدقيقة، إنما كان يعتمد على التفسيرات التي يقدمها الشراح والمعلقين.

المنهج التحليلي المقارن:

العلماء الذين أخذوا بالمنهج التحليلي المقارن ركزوا جهودهم في البحث عن أصول المعتقدات والطقوس الدينية، ومعرفة أوجه الشبه بينها. ويعد "دي بروي" ممن لهم جهود مميزة في هذا الاتجاه. الذي وضع فرضية تنص على أن "النظم المتشابهة في البيئات المتباعدة يعد دليلا على تماثل الظروف الاجتماعية في كل الجماعات التي تتماثل في النظم". وبناء على هذه الفرضية حاول "بروي" أن يقارن بين الآلهة "الفتشية" المنتشرة في قبائل وسط أفريقيا، وبين آلهة مصر القديمة في حوض النيل. وقد توصل إلى نظريته عن "انتقال المعتقدات والطقوس الدينية". ثم تطور المنهج التحليلي المقارن من البحث عن أصول المعتقدات والطقوس الدينية، إلى البحث عن العوامل الاجتماعية التي تساهم في انتشار الدين. وتعد دراسة "دوركايم" من الجهود الأولى التي حاولت كشف العلاقة بين الدين والنظم العائلية في القبائل الأسترالية.

المنهج النفسي الاستبطاني:

يلاحظ أن الدراسات التاريخية، والتحليلية المقارنة، وجهود علماء الأديان، وجهود رواد علم الاجتماع الذين حاولوا دراسة الظواهر الدينية قد خالط دراساتهم اتجاه نفسي استبطاني، سواء صرحوا بذلك أم لم يصرحوا. فغالبا اعتمدوا في دراساتهم وتحليلاتهم للعقائد والطقوس الدينية على الملاحظات الشخصية، وفسروا الظواهر الدينية في ضوء الظواهر النفسية، كالأحلام، والهواجس، والأمراض، واليقظة، والنوم، والحياة، والموت... إلخ.

على سبيل المثال: فسرت النظرية "الروحية" عبادة ظواهر الطبيعة على أساس الخوف، أو التعجب من الظواهر الطبيعية المفاجئة والخارقة للعادة. كذلك اعتمدت "الفرق الصوفية" على التجارب النفسية في الكشف، والبصيرة، والحب الإلهي، والإلهام... إلخ.

وقد شارك الكثير من علماء الأديان علماء علم النفس الاجتماعي في الأخذ بالاتجاهات النفسية عند تفسير الظواهر الدينية، ومن هؤلاء: (ماريت، مالينوفسكي، لوي). الذين فسروا الظاهرة الدينية والطقوس السحرية ونظم التابو (المحرمات) على أنها وليدة المشاعر النفسية كالكراهية، والخوف، والدهشة، والرهبة، والإحساس بوجود عالم الغيب الخارق للعادة.

المنهج التكاملي الوظيفي:

يرجع الفضل إلى "راد كليف براون" في وضع معالم هذا المنهج. فقد ميز بين (البناء، والوظيفة). فالبناء: "يتكون من أجزاء مختلفة ترتبط ببعضها البعض". والوظيفة: "هي الدور الذي يؤديه أي جزء في النسق الكلي".

إذا أسقطنا الكلام السابق على الدين؛ فإن ذلك يعني أن أي ظاهرة دينية تؤدي وظيفة في النسق الديني من ناحية، وتؤدي وظيفة في النسق الاجتماعي العام من ناحية أخرى. على اعتبار أن لكل نسق اجتماعي وظيفة في البناء الاجتماعي. بحيث إذا حدث تغير في أي منها يؤثر في بقية الأجزاء الأخرى.

مثال: العلاقة بين النظام الاقتصادي (البيع والشراء)، والنظام الديني (كصيام شهر رمضان). نلاحظ أنه في شهر رمضان تزيد النسبة الشرائية عند الصائمين، والإقبال بشكل كبير وملفت للنظر على شراء الكثير من السلع والمنتجات كالمأكولات، أو المشروبات، أو الحلويات، أو الملابس، أو الهدايا... إلخ. كذلك العلاقة بين (الزيادة الشرائية والحج) حيث أنه في موسم الحج يقبل الناس على شراء الأضاحي من الأنعام (البقرة والإبل والأغنام).

يقوم التحليل الوظيفي للظواهر الدينية على المماثلة بين الكائن الحي والمجتمع. فعندما نتحدث عن التكامل الاجتماعي للنظام الديني، فإننا نفترض وجود وظيفة تربط الأفراد والجماعات من جهة، والمؤسسة الدينية من جهة ثانية، وتوحدهم المؤسسة الدينية في منظمات تتمتع بدرجة معينة من الثبات والاستقرار، وتنظمهم في نسق ثابت يتكون من جماعات تحدد علاقة الأفراد ببعضهم، وتنظم علاقتهم بالجماعات الأخرى. كما تحدد الأوضاع التي تسمح بتكيفهم مع البيئة الاجتماعية، والتكيف بين الأفراد المكونين للجماعات الدينية.

المحاضرة الحادي عشر:

المنهج الاجتماعي المقارن ودوره تحديد مفهوم الدين

يشكل الدين مجموعة من المعتقدات والتطبيقات ، ولقد اتفق العلماء ولا سيما الأنثروبولوجيين منهم على أهمية هذا النظام الاجتماعي الذي لا يخلو منه مجتمع على وجه الكرة الأرضية ، ولكن معالجتهم لهذه المعتقدات والتطبيقات كانت متباينة الى حد كبير وفي مختلف الازمان والعصور ، فلقد كان الاعتقاد عند البعض في القرن التاسع عشر على سبيل المثال ان المعتقدات قد ظهرت أول مرة كتفسيرات ساذجة للتجارب ، وان الدين قد بني على تلك التفسيرات ، ثم جاءت فترة اعتبرت فيها التطبيقات ذات أهمية قصوى ، وان المعتقدات ما وجدت الا لتبرر تلك التطبيقات ، واليوم رغم اننا لم نعد الى تفسيرات القرن التاسع عشر التي تعتبر الدين نتاج تفسيرات تنطوي على مغالطات ، فأننا نعرف ان لكل مجتمع نظرته للعالم الخاصة به ، وان في المجتمعات التي تنعدم فيها تقاليد العلم التجريبي ، فإن حقائق هذا العلم تتشكل بهيئة اعتقاد ديني .

وحينما نلقي نظرة عابرة على كل دين ومذهب تأريخي ، ستلاحظ ان الكثير مما في هذه الأديان من تعاليم نظرية او أحكام عملية ، ترجع في الحقيقة الى كون هذه الأديان ظهرت في مقطع تأريخي خاص ، وموضع جغرافي خاص ، وفي ظل ظروف وأوضاع ثقافية وحضارية خاصة .

فالدين ظاهرة عالمية شغلت أذهان المفكرين وعلماء الإنسان و الإجتماع ، فقد كانت تثار على الدوام تساؤلات كثيرة حول (ماهية الدين) أو لماذا يفكر الناس في الدين ؟ وكيف يفكر الناس في ذلك ؟ وقد تطلبت هذه التساؤلات اجابات علمية ، وشأن هذه الظاهرة شأن الظواهر الإجتماعية الأخرى قُدمت فيها كثير من الآراء والفرضيات المتضاربة ، فمنها ما اعتمد المنطق ، ومنها ما استند الى التأمل والتخمين حيث لم يكن هناك ادلة كافية على تتبع اصل هذه الظاهرة وليس من السهل ان تسبر غور الإنسان فتصل الى سبب واحد مقنع يفسر اندفاع الإنسان لإن يسلك سلوكاً دينياً .

كذلك فإن التنوع والتعدد والتباين في الأديان لا يُمكّن الباحثين والدارسين من اعطاء تعريف واسع جامع مانع للدين ، فقد يُعرف اتباع ديانة ما معتقدهم الديني بأنه الإيمان بقوة علوية سامية تمد الناس بقيم أخلاقية وأنماط سلوكية معينة ، وتبشرهم أو تنذرهم بحياة اخرى ، لكن مثل هذا التعريف قد لا يصدق على جميع المعتقدات الدينية في العالم .

لا يوجد تعريف واضح ومحدد للدين ، فهناك العديد من التعاريف التي تتصارع من اجل الوصول الى مفهوم دقيق وشامل ، لكن في النهاية مثل هذه مواضيع تخضع لإيمان الشخص الذي يضع التعريف ، وبالتالي يصعب وضع تعريف شامل يرضي جميع الناس ، فالدين يتضمن أحدى أقدم نقاط النقاش على الأرض ، وفي القدم كان النقاش يتناول شكل وطبيعة الإله الذي يجب ان يُعبد ، اما في العصر الحديث فيركز موضوع النقاش حول وجود أو عدم وجود إله خالق تتوجب عبادته .

لذلك نجد من يحاول تعريف الدين من منطلق إيماني وروحاني ويقيني ، أو من منطلق إلحادي او من منطلق عقلاني يحاول دراسة الدين كظاهرة إجتماعية او نفسية او فلسفية .

ان علماء الإجتماع ينظرون الى الدين على انه مجموعة مجردة من القيم والمثل او الخبرات التي تتطور ضمن منظومة ثقافية لجماعة بشرية ، فالدين كان من الصعب تمييزه بنظرهم عن العادات الإجتماعية الثقافية التي تستقر في المجتمع لتشكل البعد الروحي له .

وعموماً يمكننا القول بأن الدين ما هو إلا جملة العقائد والتصورات عن الخالق والمخلوقات وكيفية صدورها عن الخالق والمخلوقات ، تكونت من خلال الإيمان الذي يتأتى عادة عن طريق الوراثة ، فالأبناء عادة على دين الآباء يولدون على الفطرة والآباء ينصرونهم أو يسلمونهم ، وتدعم هذه العقائد ، و يتجدد فعل الإيمان بها بأنواع من السلوك والتصرفات والعادات تتم جميعها بأشكال محددة مسبقاً ، وتتجسد بطقوس ومراسيم ورموز تؤمن التجديد اللازم لهذه العقائد ، وتغذي السلوك الإجتماعي بنوع من الأخلاق يستلهم الدين من أجل الإرتقاء بالإبتعاد عن الشر بسلوك طريق الخير .

فالدين هو العلاقة الروحية والعاطفية بين الإنسان وقوى ما فوق الطبيعة ، أو الكائنات التي يقدم لها العبادات ويقيم لها الممارسات الطقوسية التي تُعينه على الإتصال بهذه القوى وتمكنه من إدامة تلك العلاقة التي تصبح مقننة في النظام الإجتماعي ، ويعرف الدين كذلك بأنه نسق من المعتقدات والممارسات المباشرة الموجه نحو اهتمامات المجتمع الأساسية و الجوهرية ، ويعرف أيضاً بأنه مجموعة من النظم الصارمة .

وهناك منظومة من الخصائص تشترك فيها جميع الديانات ، فهي تتضمن مجموعة من الرموز التي تستدعي الإحترام وتوحي بالرهبة ، كما انها ترتبط بمجموعة من الطقوس والشعائر او الممارسات الإحتفالية التي يؤديها من يعتنقون هذا المذهب او ذاك ، ويحتاج كل واحد من هذه العناصر الى بعض التفصيل والإيضاح ، ففي بعض الديانات يؤمن الناس بقوة سماوية واحدة مقدسة يعبدونها ، وهناك شخصيات اخرى في بعض الديانات ، مثل بوذا وكونفوشيوس تستوجب الإحترام والتقدير ، غير انها لا تستلزم التقديس والعبادة .

وقد عرف الأستاذ إدوارد تايلر الدين البدائي بأنه الإعتقاد بالقوى الروحية ، ويتفق الباحثون على ان هذا التعريف يمثل الحد الأدنى لمضمون النظام الديني ، ويقصد تايلر بالقوى الروحية الأرواح والأشباح والعفاريت والجن والأقزام الخرافيين وغيرها ، وهي كلها تشترك بصفة واحدة وهي افتقارها للأجساد على الرغم من وجودها اليقيني حسب اعتقاد الجماعات البشرية في ذلك .

المحاضرة الحادي عشر: الدين والعاطفة الدينية:

من أهم الأبعاد في شخصية الإنسان البعد العاطفي، الذي يحتل موقعًا أساسًا في تحديد اتجاهات الإنسان وتوجيه سلوكه ،لذلك اهتم الدين بإرشاد الإنسان إلى حسن إدارة هذا البعد في شخصيته، وإلى توظيفه في تعزيز الاتجاه القيمي الأخلاقي في نفسه وسلوكه. حتى لا يفقد السيطرة على عواطفه ومشاعره، فتتمرد على إدراكه العقلي، وإرادته الواعية.

وقد أكّد الدين على تنمية المشاعر الإيمانية، وترسيخ حبّ الله تعالى في نفس الإنسان، وحبّ الأنبياء والأئمة الهداة، لتكون هذه المحبة بعمقها العاطفي دافعًا للالتزام بالقيم، والتّطلّع لنيل رضا الله تعالى، بإطاعة أوامره واجتناب معصيته. ولتكون سيرة الأنبياء والأئمة والأولياء حافزًا للاقتداء بهم، والسير على نهجهم.

والمناسبات والشعائر الدينية محطات للشّحن والتعبئة الروحية العاطفية، لتعميق الولاء والانتماء الديني في النفوس، ولاستحضار القيم والمبادئ التي بشّر بها الأنبياء والأئمة، وجسّدوها في سيرتهم، وحملتها كلماتهم وتوجيهاتهم.

ومن أجل الاستفادة المثلى من هذه المحطات الإيمانية، لابد من الوعي بأهدافها وأغراضها، ومعرفة أفضل السبل لإحيائها والاحتفاء بها. وفي هذا السياق صدر لسماحة الشيخ حسن الصفار كتاب: (فلسفة العاطفة الدينية.. رؤية حول المناسبات والشعائر الدينية)، الذي يتحدث عن رسالة هذه المناسبات والشعائر الدينية المهمة، ويدعو إلى تفعيل دورها الإيجابي في الحياة الاجتماعية، حتى لا تتحول إلى مجرد طقوس شكلية، وتقاليد تراثية، تفقد المحتوى والمضمون الإيماني القيمي.

جاء في الغلاف الخلفي للكتاب:

إن للعاطفة الدينية دورًا أساسًا في حماية الانتماء الفكري، والالتزام العملي السلوكي. فهي التي تخلق الدافع والحافز الديني في نفس الإنسان، وتصنع الأجواء الجاذبة للدين في المحيط الاجتماعي. ومن دون الجانب العاطفي لا تكون للدين حيوية في حياة الفرد والمجتمع الديني ،إن البعد العاطفي قائم في حياة الإنسان وإذا لم يكن هناك اهتمام ديني بهذا البعد، فقد تصبح الحالة الدينية فاترة جافة، حيث تتبلد المشاعر، وتخبو الاحاسيس، ويقسو القلب. أو تُستغل العاطفة ضمن توجهات أخرى مخالفة لمصلحة الإنسان، وأغراض الدين.

المحاضرة الثلاثة عشر:الدين والسحر:

نطلاقًا من فرضية الفيلسوف هيجل، التي تقول بأن عصرًا ساد فيه السحر قد سبق عصر الدين في تاريخ الحضارة الإنسانية، قام رائد الأنتروبولوجيا النظرية في بريطانيا السير جيمس فريزر بصياغة نظريته المعروفة حول أصل الدين وعلاقته بالسحر. في البداية، يفترض فريزر أنه قد مرَّ على الإنسان عهدٌ ظن فيه أن بمقدوره التحكم في سير عمليات الطبيعة بواسطة تعاويذه وطقوسه السحرية. وعندما اكتشف بعد فترة طويلة قصورَ هذه الوسائل عن تحقيق غايتها، تصوَّر أن الطبيعة التي تأبَّت على الانصياع له، واقعة تحت سلطان شخصيات روحانية فائقة القدرة، فتحول إلى عبادة هذه الشخصيات واستعطافها، واسترضائها بالأضاحي والقرابين، لتقف في صفه وتلبِّي له حاجاته؛ وبذلك ظهر الدين وتحوَّل الإنسان عن السحر، وحل كاهن المعبد محل ساحر القبيلة. يقول في كتابه الغصن الذهبي:

في شكله الصافي، يفترض السحر التعاطفي أن الأحداث في الطبيعة يتلو بعضها بعضًا، بشكل اطرادي دون تدخُّل من شخصيات روحانية ما ورائية. من هنا، فإن المفهوم الأساسي للسحر يتشابه مع المفهوم الأساسي للعلم الحديث، حيث يسود الإيمان التام بالانتظام والتماثل في الطبيعة. فالساحر لا ينتابه شك في أن الأسباب الواحدة سوف تنتج بالضرورة النتائج نفسها، وفي أن إتيان الطقوس المناسبة المصحوبة بالتعاويذ المناسبة سوف تتلوها النتائج المرغوبة، إلا إذا تدخلت قوة ساحر أقدر منه للحيلولة دون ذلك. والساحر في عمله هذا، لا يلتمس عون أية قوة عُليا، ولا يسعى لاستمالة كائن روحاني ما، متقلب المزاج أو عصي على الإرضاء. إنه يؤمن بقدرته غير المحدودة طالما استطاع استخدام تقنياته على الوجه الصحيح.

ولكن، إذا كان السحر هو أقرب الأقرباء إلى العلم من حيث افتراضاته الأساسية، فما هي صلته بالدين؟ قبل الشروع في الإجابة على هذا التساؤل،----

ينبغي علينا أن نوضح ما الذي نعنيه بالدين؛ لأن الإجابة سوف تتلوَّن وفق ما نراه من شأن الدين وطبيعته. إن الدين، كما أراه، هو تلك الأفعال الهادفة إلى استعطاف أو استمالة قوًى متفوقة، يعتقد الإنسان بقدرتها على التحكم بمسار الطبيعة والحياة الإنسانية؛ أي إن هنالك عنصرَين مكونين للدين؛ واحد نظري يتعلق بالإيمان بالقوى المتفوقة، وآخر عملي يتعلق بالعمل على استرضاء هذه القوى.

فإذا كان الدين اعتقادًا بكائنات خارقة تحكم العالم، والقيام بما من شأنه التأثير على هذه الكائنات، فإن الإنسان المتدين يفترض أن سير العمليات في الطبيعة هو عُرضة للتبدل والتغير في أي وقت، إذا تدخلت الكائنات المقدسة التي تتحكم في الطبيعة من أجل ذلك، فإننا نستطيع إقناع هذه الكائنات بإحداث مثل هذه التغيير لصالحنا. وهذا يعني أن الطبيعة في الفكر الديني ذات خصائص مرنة، على عكس ما يتصورها الفكر السحري الذي يفترض فيها الصلابة والثبات، وعدم خروج عملياتها عن مسارها نتيجة التوسط لدى القوة الإلهية المتحكمة بها. وهكذا، فبمقدار ما ينظر الدين إلى العالم كجملة محكومة من قِبل كائنات عُليا عاقلة، يمكن التدخل لديها وإقناعها من أجل تعديل سلوكها، بمقدار ما يقف على طرف نقيض مع السحر ومع العلم أيضًا؛ ذلك أن السحر والعلم يؤمنان بأن العالم لا تحكمه أهواء كائنات عُليا مشخصة، بل عددٌ هائل من القوانين التي تفعل فعلها بشكل آلي. قد يتعامل السحر مع كائنات روحانية تُشبه ما لدى الدين، إلا أنه يتعامل معها بطريقته الخاصة التي تختلف عن الدين؛ ففي الطقوس السحرية لا يتوسل الساحر إلى هذه الكائنات، بل إنه يجبرها على تنفيذ مشيئته ... وهنا نجد امتزاجًا بين السحر والدين ضمن نظام مختلط ... إلا أن هذا التمازج ليس أصليًّا بل طارئ؛ فلقد مرَّ على البشرية وقت اعتمدت فيه على السحر وحده ... ولعل في المثال الأسترالي ما يُعزز استنتاجاتنا. ففي أستراليا، حيث نواجه أكثر المجتمعات الموثقة لدينا بدائية، نجد الجميع يلجأ إلى السحر، بينما نلاحظ غياب الدين بالمعنى الذي أوضحناه؛ أي التقرب إلى قوًى عليا واسترضائها. فكل فرد هنا يتخيل أنه يستطيع التأثير في أقرانه أو في الطبيعة من خلال السحر التعاطفي، ولا يفكر أبدًا باسترضاء إلهٍ ما بالصلوات أو القرابين.

المحاضرة الخامسة عشر: نشأة الدين:

عرف الإنسان الدين منذ أبينا آدم (عليه السلام)، وأنَّه موحى به من قبل الخالق ، إلا أنه في العصر الحديث - وفي أوربا على وجه التحديد – ظهرت آراء ومعتقدات ترى أن الدين مجرد ظاهرة اجتماعية تتشكل وتتطور حسب المجتمعات. ومع اتفاق المدارس الغربية حول نشأة الدين إلا أنهم اختلفوا حول الدين الأول للإنسان البدائي؛ فمنهم من يرى أن مظاهر الطبيعة هي دين الإنسان الأول وهؤلاء أصحاب المذهب الطبيعي، ومنهم من رد الدين البدائي الأول أرواح الموتى وهؤلاء أصحاب المذهب الروحي (الحيوي)، ومنهم من يرى أن عبادة أرواح الموتى كان مسبوقًا بما يسمى المانا (القوة الخفية المنبثة في العالم) "المانا Mana". ورأت المدرسة النفسية أن الدين غريزة التدين موجودة في فطرة الإنسان، لكن الدين في نظرهم مجرد شعور لا وجود له في الواقع وأنه أمر شخصي حسب كل إنسان، وأما أصحاب المدرسة الاجتماعية فيرون أن الدين ما هو إلا ظاهرة اجتماعية وأن التوتمية هي أصل الديانات (هذا في نظر دور كايم) بينما يرى (أوجست كونت) أن البشرية قد مرت بما يطلق عليه بالحالات الثلاث؛ وهي الحالة اللاهوتية أو الخيالية، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة، ثم الحالة العلمية أو الوضعية. هذا وقد عارضت كل هذه المدارس جميعها مدرسة أخيرة رأت أن هذه الديانات كانت مسبوقة بدين التوحيد إلا أنها سارت على نفس المنهج الذي سارت عليه المدارس السالفة الذكر.. وعلى كل فقد أثبت البحث أن الدين الموحى به إلى الأنبياء هو الدين الحق وأن الله تعالى هو مصدر الدين، وأن البشرية قد حادت عن عبادته تعالى في بعض الأزمنة نتيجة بعض الظروف.

على الجانب المقابل للإسلام يعتنق بعض الباحثين رؤية تطوّرية ويعمّمونها على الاجتماع الديني الإنساني بأسره، فيرون أن أصل الأديان بدأ من فكرة انبثقت إما من أفراد وإما من جماعة بشرية ما ثم تفرعت عنها جميع الأديان في التاريخ، ما يعني -وفقا للرؤية التطورية- أن الدين لا حقيقة خارجية له، وإنما هو منتج إنساني محض مثل أي منتج فكري أو إنساني آخر. تنوّعت المدارس التطورية في تفسير أصل الأديان.

ذهب أتباع المدرسة الحيوية إلى أن الإنسان البدائي كان يرى في أحلامه أنه يتفاعل مع كائنات حية كما لو كان في الواقع بالضبط، فعظّم النفوس البشرية التي يراها في أحلامه، واعتبر النفوس الميتة التي يراها في الأحلام أنها أطياف لأرواح الأموات، ومن ثمّ اتجه الإنسان إلى تقديس أرواح أسلافه واعتقد أن فيها قوى خارقة خيّرة أو شريرة وعظمها كما يعظم المؤمنون بالله إلههم (١٩)، فاعتقد فيها أنها تسبب الألم أو تجلب السعادة، وكلما تقرب المرء من هذه الأرواح وقدم لها القرابين استدعى الأرواح الطيبة، وكلما عمل الإنسان على غضب هذه الأرواح واستجلاب سخطها كلما أصابته بسوء وأذى أمّا المذهب الطبيعي فرأى أصحابه بأن الإنسان البدائي رأى أن الكائنات الحيّة جميعها تخضع لقوى الطبيعة ولا يستطيع أي كائن التحكّم فيها أو تعديل نظامها، فاجتمع لدى الإنسان البدائي شعور مؤلّف من الدهشة والإعجاب رأى به الكون أشبه بالمعجزة(٢١). وذهب بعض أتباع هذه المدرسة إلى أن الأحداث الفجائية للطبيعة مثل الزلازل والبراكين والطوفان والصواعق أرهبت الإنسان البدائي وملّكته شعورًا بالخوف ومن ثمّ انبعث ولاء الإنسان إلى قوى الطبيعة خوفًا من بطشها ليتقي شرها ويستدر عطفها، فأصبحت قوى الطبيعة آلهة تُعبد بحدّ ذاتها.